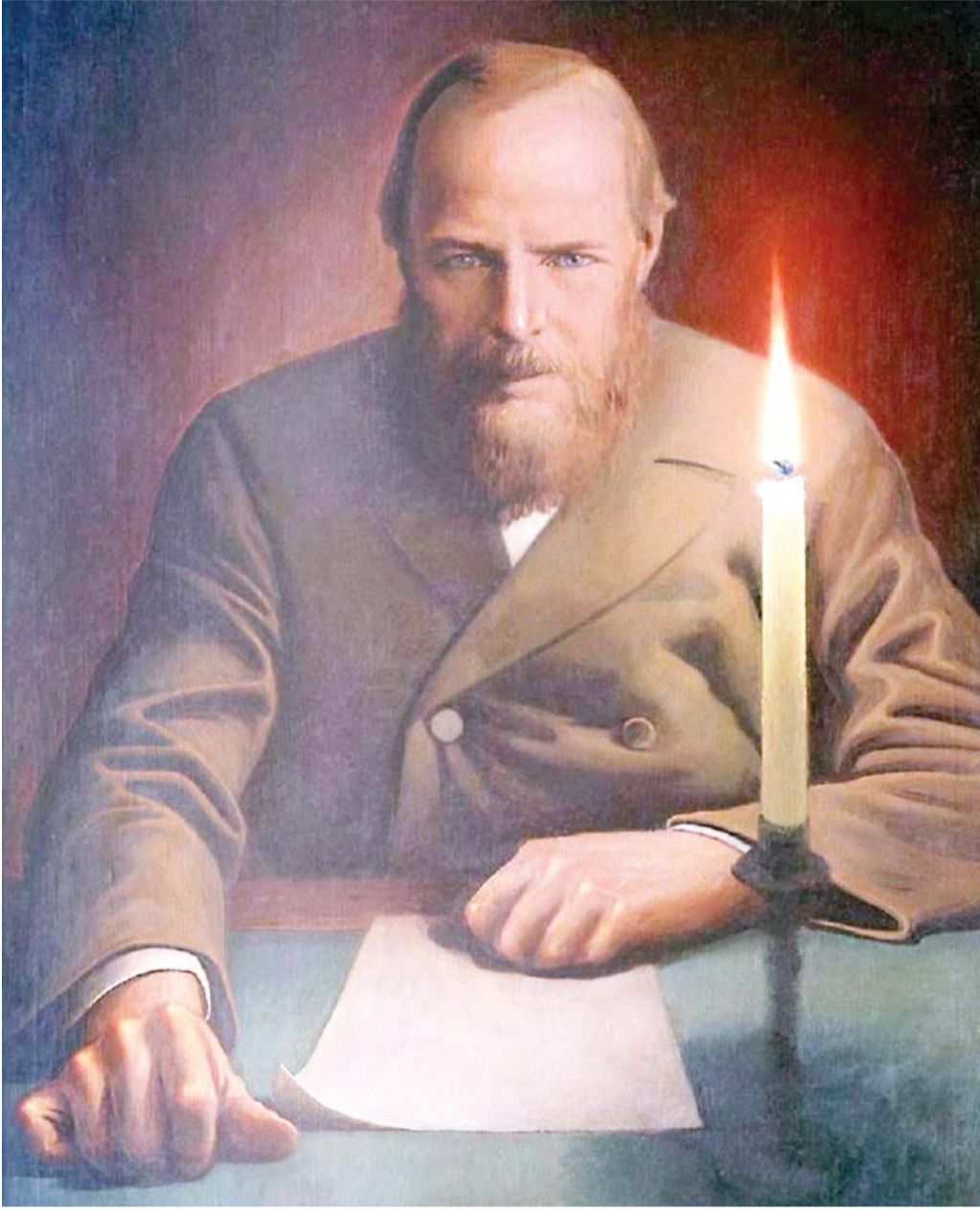


دوستوفسكي العاشق من زوجة صديقه إلى كاتبته التي أنقذته

وقفة جديدة مع دوستوفسكي ووجهه الآخر الذي تكشفه رسائله



العاشق المقامر والزوجة المنقذة

عنه. وفي نهاية الرسالة يعتذر لها عن جراء تعذيبه لها، ويشرح لها معاناته مع عادة لعب الروليت، وكيف أنه يجاهد كثيرا كي لا يعود إلى طاولة الروليت، لكن كل مقاومته تنهار، ويفقد ما لديه.

يتكرر الاعتذار والأسف، بل وتطلب السماح منها على كل "الغابات والانفعالات التي سببها لها"، ثم كالعادة يذكر لها ندمه على عدم أخذها معه، ويخبرها بأنه يخشى الحديث عن المستقبل لأنه بالنسبة إليه مجهول، ويعول على أن الرب سينقذنا على أي حال". كما تكشف الرسائل حالة الضعف التي يبدو عليها دوستوفسكي، سواء بسبب إيمانه للقمار، ورغبته التي لا يستطيع مقاومتها للعب، مع معرفته بالخسارة، وأيضاً بسبب ضعفه أمام ناشريه، واستكائه لابتنزازاتهم له، والأهم ضعفه أمام نفسه وخشيته أن يظهر أمام الآخرين بمظهر السفه الذئبي، لذا يشدد عليها بالأطلاع أحداً من أقرانها برسائلها، وفي الرسائل يشككي لنيكولاي سترافوخ من حالة الكتابة تحت ضغط الموعد، لذا يبتني أن يكون حرا مثل "تولستوي وتورغينيف وغونتشاروف" غير مقيد بموعدهم بفروض عليه.

وعندما يعلم بمرضها وهو في بروسيا، يعتربه الحزن، لدرجة أنه يؤنبها، ويشاطرها المأثرا قائلا "فأودي يتالم لك، فكرت هنا في كل معاناتك في عملي...". وفي غمرة ألمه يعترف بحبه لها قائلا "لقد وقعت في غرامك، يا أنيا، لدرجة لم تنق في ذهني أي فكرة سواك".

وفي رسالته إلى صوفيا إيفانوفنا يأتي ذكر أنسا، وحياتها معا فبقول "أنا مع أنا جرجوريفنا في عزلة رهيبية". تظهر الرسائل ثقة دوستوفسكي في زوجته بل يعتبرها موضع ثقة مطلقة؛ فيحكي لها تفاصيل كتاباته وعلاقاته بالناشريين، وأيضاً شغفه أمام المقامرة، وهروبه من الدائنين، وفي نفس الوقت يظهر خوفه عليهم (هي وأبنائهم) وسعيه لتأمين حياة سعيدة قدر استطاعته لهم.

تعدو الرسائل إليها بمخاطبة يوميات له، يصف فيها كل ما يصادفه في يومه، فيرسل لها رسالة عندما يصل مدينة إيمس في برلين، يبثها شعوره بالملل الذي تسرب إليه من المدينة، كما يعدها بأنه سوف سعيدة قدر استطاعته لهم.

ثم ترد باسم أنا سنبتكينا قبل الزواج. محور الرسالة يكشف عن طبيعة الثقة التي أولها لها، فيتحدث عن طبيعة خلافاته مع مجلة البشير الروسي، وكيف انتهى إلى توليف أوضاعه، ثم يعدها في نهاية الرسالة بما ينتظرهما من مصير "فالنقود متوفرة، وسنعتقد القرآن بأسرع ما يمكن" وبعدها يخبرها بأنه سيليحق بها في بطرسبورغ، وينهي رسالته بتمني أن يعانقها ويقبلها فمما يقول "أقبل بيدك الرقيقين وقدمك اللتين لا تسمحن لي بقبيلهما".

رسائل دوستوفسكي إلى زوجته بمخاطبة يوميات له، يصف فيها كل ما يصادفه ويحكي فيها عن تفاصيله الخفية

ويقول لها بعد توقيعه الرسالة بالمخلص زوجك السعيد "يستحيل الزواج؛ أحبيني يا أنا وأنا أحبك إلى الأبد"، وأحياناً يوقع بالمخلص لك بكل شغاف الفؤاد. ومرات كثيرة يردد هذه الصيغة التي تكشف عن محب له، هكذا "أقبلك حتى آخر ذرة، وخصوصاً قدميك الرائعتين. أنت سيدتي الأمرة النهائية، أنا لا أستحقك، لكنني أوّله زوجتي الحبيبة، ولن أتنازل عنها لأحد، ومع أنني لا أستحقها".

ثم تبدأ الرسائل اللاحقة في إظهار الحميمة بينهما فيمخاطبها في رسالة من هامبروج بتاريخ 5 مايو 1867، هكذا "مرحباً يا ملاكي الحبيب، أعانك وأقبلك بحرارة، طول الطريق كنت أفكر فيك"، ويكتب لها بعد وصوله مباشرة، مظهراً افتقاده لها، وندمه على أنه تركها وحيدة. ومن شدة إظهار ولعه لها يقول "أدرت أنني لا أستحق مثل هذا الملاك المكتمل الشفاف، الهادئ الوادع الرائع العفيف الذي يتقي لي"، ويعتبرها عطية من الله كي يكفر بها عن خطاياها الشنيعة.

يتابع رسائله إليها وأصفاً متاعب الرحلة والبرد الذي تعرض له، ووحشته وافتقاده إليها. كما يحكي لها مقارناته، وخسارته لبعض النقود، وفي إحدى رسائله بتاريخ 9 مايو يصف لها حزنه الشديد عندما ذهب إلى مكتب البريد دون أن يجد رسالتها. يقول له صراحة "أنا لم أتعب يوماً، أبداً، لهذا الحد (يقصد عدم عثوره على رسالتها في مكتب البريد)، ولم أرتعب كما حصل لي يوم أمس". ويطلب منها بعدما خسرت نقوده في المقامرة، أن ترسل له النقود كي يجعل بالرحيل من هذا المكان، كما أوصاهم بالأطلاع أحداً على رسالته كي لا يرى هذه الصورة المزرية

زوجها المعتلة بالرعاية التامة"، وأن تضعه حسب تعبيره "على أكف الراحة كما لو كان طفلاً، كما أظهرت كثيراً من اللين والتساهل في معاملتها إياه ممزوجاً باللباقة المذبذبة، وأستطيع أن أقول بكل ثقة إن فيودور ميخائيلوفيتش وأسرته، وعلى نفس الدرجة أيضاً كثيراً من المعجبين به، مدينون جميعاً بعدد من سنوات عمره لها".

الموضوع الأساسي لمذكرات أنا "مذكرات زوجة دوستوفسكي" (ترجمتها أنور محمد إبراهيم، المشروع القومي للترجمة القاهرة، 2015) ليس الزوجة وإنما الزوج، فهي تأتي في المرتبة الثانية بعد "رب الأسرة والزوج الذي يهيم عشقاً برقيقة عمره الأب الروؤوم"، هي في الظل تقوم بدور الزوجة المتواضعة كاتبة السيرة، تكتب عن أحزانه أكثر مما تكتب عن أحزانها.

أصل هذه المذكرات هو اليوميات الغامضة، والتي قال عنها دوستوفسكي "أدفع أغلى ما عندي لأعرف يا أنتيشكا (لقبها عنده) ما الذي تعنيه بصنانيرك هذه التي تخطينها: لعلك تستمطيني"، وأحد ما أتت به زوجها، لكن دون أن تنقل كل ما في يومياتها إلى المذكرات، وإنما اعتمدت على الانتقاء، إزاحة ما رآته تافهاً، حافظت أنا في مذكراتها على طبيعة مشاعرهما، وما تكنه من حب ونفور لبعض الشخصيات، وهذا واضح في علاقته بابن زوجة دوستوفسكي السابقة، كما تسرد الكاتبة عن رحلاته، وعلاقاته باصدقائه ومراسلاتهم، وعن اللقاء الذي ظل مرتقبا بين تولستوي ودستوفسكي.

عشق بلا حدود

أما الرسائل التي جاءت في جزأين (وقد ترجمها خيرى الضامن، دار سؤال) فيخص دوستوفسكي أنا بالكثير من الرسائل، ويمخاطبها دوماً بعزيمتي وصديقتي المخلصة، وتارة بعزيمتي أنتيشكا، يرد أول مرة اسم أنا جوجوريفنا في رسائل دوستوفسكي، تحديداً في الجزء الثاني في رسالة إلى نيكولاي لوبيموف المحرر التنفيذي لمجلة "البشير الروسي"، في ملحوظة عقب الرسالة، حيث يخبره بأنه استاجر كاتبة اختزال (دون أن يحدد اسمها)،

المقامرة، وهو ما حداه لأن يعترف لها "سأظل ما حييت أنكر لك هذا، وفي كل مرة سوف أدعو لك يا ملاكي بالتوفيق، كلا أنا الآن لك كلية، لك تماما، أما قبل ذلك فكان نصفي ملكا لهذا الوهم الملعون". أما هي عند وفاته، ففرضت التسليم بموته، حتى في رسائلها كانت تؤكد على صعوبة تصديق فكرة الغياب فتقول لصديقتها صوفيا أفيركييفا "أعود بذكراتي إلى السنوات السعيدة التي مضت، ولا أستطيع أن أصدق أنها لن تعود ثانية، لا أستطيع أن أسلم بفكرة أنني لن أراه، ولن أستمع إلى صوته مرة أخرى...".

بدأت علاقته بها منذ أن حدث اللقاء الأول بينهما، وإن كانت قرأت له بعض أعماله كمذكرات من بيت الأموات، قبل اللقاء الفعلي الذي حدث عندما تم ترشيحها من قبل أسنانها أولخين (مدرس الاختزال) لتعمل معه كمساعدة في كتابة إحدى رواياته، وما إن حدث اللقاء (في الرابع من أكتوبر 1866) حتى تم التقارب بينهما، وقد أشار إعجابها الشديد، السود الذي سرى بينهما جعله يكشف عن "صورة حزينة ما من صور حياته". وما إن بدأت العمل معه، حتى شعرت بالحزن الثقيل، لما رأت عليه الأيدي في صورة "إنسان تعيس هجره الجميع" وهذا الشعور كان بداية التعاطف العميق والأسنى البالغ عليه.

تسرد أنا عن بداية العلاقة بينهما، وعن حيلته للارتباط بها، وعن الصراحة التي أداها في الحديث معها، بتفاصيل دقيقة عن حياته الشخصية وعن سجنه في قلعة بتروبافلوسك، وعن خطبته للكاتبة أنا فاسيليفنا كورفين - كروكوفسكايا، وتراجع عن الاستمرار في الخطبة بسبب التناقض بين أفكارهما. وبعد انتهاء عملها، طلبها للزواج، وهو ما أشار حفظة أقاربه (وأقاربها بسبب فارق السن بينهما) وخصوصاً زوجة أخيه ميخائيل ميليئا، وابن زوجته الأولى بافل، فقد عاملاها بعداء شديد وكانها عدوة.

وقد اعترف الكثيرون من معاصري دوستوفسكي بالدور الذي لعبته أنا في حياته، وكيف أنها كانت بمثابة المخلص من الأم وعذابات المرض، فإكسنتروف وهو صديق لهما كان كثير التردد على بينهما، يقول "استطاعت أنا على وجه التحديد صحة

تمر هذه السنة (نوفمبر 2021) الذكرى الثانية بعد المئة على ميلاد الروائي الروسي فيودور ميخائيلوفيتش دوستوفسكي (1821 - 1881)، وقد جعلت اليونيسكو من هذه المناسبة احتفالاً كبيراً على مستوى العالم بالرجل، تقديراً لمكانته الأدبية؛ إن غاص بإبداعه في أعماق النفس البشرية، كاشفاً عن تناقضاتها، وعلى الرغم من معاناته في حياته الشخصية بسبب العوامل التي تكاثرت عليه كالفاقة والعوز والمرض وقبلها الحبس في سجن سيبيريا، إلا أن رسائله (ترجمها خيرى الضامن في جزأين) كشفت عن جانب آخر من شخصيته، وهو العاشق.

تولعت بدوستوفسكي وأرسلت له رسائل الإعجاب والحب، ثم أخذت تعاونه في المجلة التي يصدرها مع أخيه ميخائيل، وعلى الرغم من اختلاف طبيعته مع طبيعته، إلا أنه يقرر السفر معها، لكن ظروف المجلة يتأخر عنها، فتسافر إلى باريس وهناك لا تضييع الوقت، فترتبط بشباب إسباني غني، ويفشل دوستوفسكي في قطع علاقتها به، فيعود حسيراً، إلا أن الشاب يتركها، فتعود مرة ثانية إلى دوستوفسكي ويسافران معا إلى إيطاليا، ثم جنيف وروما وفنابولي، وتستمر هذه الرحلة ستة أسابيع، لكن ما تلبث أن تنطفي جذوة الحب بينهما وتتحول إلى كره متبادل، فيهجرها ويعود إلى زوجته التي كانت الغيرة قد استبدت بها مع اشتداد المرض عليها.

المنقذة من الألم

التجربة الثالثة كانت بعد وفاة زوجته مارييا، حيث كان في حاجة إلى عامل اختزال أثناء كتابة رواية "المقامر"، فحدث التعارف مع أنا جوجوريفنا (1847 - 1918) التي صارت زوجته وصاحبة الإسهامات في حياته.

علاقة دوستوفسكي بزوجته الثانية كما كشفت رسائله إليها ومذكراتها عنه، علاقة من طراز فريد، فهي كما وصفها "مساعدتي المخلصة وسلواني" فلم تكن مجرد زوجة بل كانت بالنسبة إليه "شخصية ضرورية: لا غنى عنها".

وقد اعترف الكثيرون من معاصري دوستوفسكي بالدور الذي لعبته أنا في حياته، وكيف أنها كانت بمثابة المخلص من الأم وعذابات المرض، فإكسنتروف وهو صديق لهما كان كثير التردد على بينهما، يقول "استطاعت أنا على وجه التحديد صحة

تمنح رسائل فيودور دوستوفسكي محبة وتولها بالمحسوب. فكما يقول مكسيم غوركي "كان قلب الكاتب الروسي ناقوساً للحب، وصوتا جباراً تسمع كل القلوب الحية في البلاد". ومن شدة ما عاناه من ويلات الحب، يصوغ فلسفته هكذا "فرحة الحب عظيمة، لكن المعاناة فظيمة، والأفضل للإنسان ألا يحب أبداً".

وقد مر دوستوفسكي في حياته بثلاث تجارب عشق، الأولى كانت مع مارييا إيسايفنا، وهي كانت حبه الأولى الكبير. امرأة مثقفة والدها ديميتري كونستان مدير الجمارك في أستراخان، كانت مارييا متزوجة من معلم شاب اسمه إيسايف مدمن للشراب، بحكم وظيفته كان ينتقل من مكان إلى مكان، حتى استقر الحال بهما (هو وزوجته) في هذه المدينة الثانية، وسرعان ما انعقدت أواصر الصداقة بين دوستوفسكي والمعلم الشاب، إلا أن دوستوفسكي تحول إلى الإعجاب بزوجته الشقية، إذ كان يشعر إزاعها بشقفة كبيرة.

لم يجد بداً إزاء حائل الزوج إلى أن تكون له "حبا خويماً"، لكن الحب استبد به، وتحول إلى هوى جامح، وما إن انتقل الزوج إلى مكان آخر للعمل، حتى تمزق قلب دوستوفسكي للفرار. فأرسل رسالة لها بتاريخ 4 يونيو 1855 يخبرها بما اعتراه من وحشة والألم بسبب فراقها، فيغالبها، حسب عبارته، يتيم هنا، بل صار الوقت في غيابها "أشبه بالسجن كالفطرة التي اعتلقت فيها عام 1849، وعزله عن كل ما هو عزيز"، إلا أن القدر يلعب لعبته، فيموت الزوج، وتأتي الفرصة لدوستوفسكي الذي كان وصيقه إكسندر فرانجل يمدان لها العون وهي وابنها الصغير ثم بعد فترة عرض عليها الزواج، فقبلت مع أنها لم تكن تحبه.

حب جامح

في رسالة بتاريخ 22 ديسمبر 1856، إلى أخيه ميخائيل، يسرد له فيها تفاصيل علاقته بماريا ومدى حبه لها، وإن كان مره، من قبل، اسمها ولم إلى علاقته بها، في رسائل سابقة، لكن في هذه المرة يعلن صراحة حبه ورغبته في الزواج بها هكذا "إنني أحب امرأة اسمها مارييا ديمتريفنا عيسايفا"، وفيها (أي الرسالة) يحكي له كل ظروفها منذ أن تعرف عليها وما شعر به، ورحيلها مع زوجها، ثم وفاته، وما قام به من رعاية لها ولابنتها، وهو ما أوقعه في ضائقة أخرى وديون تضاعف إلى ديونه، ثم مراسلته لأسرتها.

أثناء زواجه بماريا، تعرف على فتاة جامعية اسمها باولين سوسلوفيا، ابنة رجل غني صاحب مصنع (وإن كان في الأصل قنا من ألقان أسرة تحمل لقب الكونت شيريميتيف) كانت الفتاة صبية غاية في الجمال، وإن كانت متسلطة الطبع، شديدة الحماس، كما أنها كانت ملحدة تعتنق المذهب الفوضوي، والعقيدة القديمة، تدعو إلى الحب الحر الذي لا يقيد قيود.

يعترف لها في رسائله بمكانتها وحبه المتين لها، فهو بعيد عنها يشعر "بالكتابة المؤلمة" قائلا "وها أنا مقتنع يا أنا أنني بعد اثني عشر عاماً لا أحبك فقط، وإنما تتم بك، وأنت سيدتي الوحيدة، جمعتهما فن الاختزال الذي كانت تجيده، كما يدين لها دوستوفسكي بوجه خاص بأنها خلصت من سلطان

مervat فخر النابلي
كاتب مصري